٢٠٢٣

حسن البنا: الأدلجة السياسية للإسلام

كتاب الملف:

كريم محمد .. كاتب ومترجم مصري

حنان جابلي .. صحفية تونسية

طارق أبو السعد .. كاتب مصري

أحمد بان .. كاتب مصري

نادر رزق .. كاتب أردني

جهاد حسين .. كاتب سوداني

حسن البنا والأدلجة السياسية للإسلام في القرن العشرين

كريم محمد
كاتب ومترجم مصري

تحيل الأدلجة السياسية للإسلام إلى تأويل الإسلام، باعتباره «أيديولوجيا سياسية»: أي كـ «نسق شامل من الأفكار من أجل الفعل الاجتماعي والسياسي» يعمل كأداة وظيفية لتنظيم الدولة والمجتمع، إضافة أيضاً إلى تحديد كيف يمكن لهذا المثال الاجتماعي-السياسي أن يتحقق

إنّ أدلجة الإسلام بالتحديد هي تلك النزعة الرامية إلى تأويل الإسلام كأيديولوجيا سياسية، والتي يعزوها الباحثون دائماً إلى حسن البنا المصري ومؤسس جماعة الإخوان المسلمين في القرن العشرين، بالتالي، ستقيم هذه المقالة إلى أيّ حدّ يدل فكر البنا على الأدلجة السياسية للإسلام في القرن العشرين، وللقيام بذلك؛ ستجمع المقالة أولاً البراعة السياقية مع شرح لدعوة البنا إلى تأسيس دولة إسلامية متجذرة في فهم الإسلام، باعتباره حلاً سياسياً مثالياً وشاملاً، ثم ستمضي هذه المقالة في استكشاف الأدلجة السياسية للإسلام لدى البنا، مركزة على دعوته إلى «حوكمة إسلامية»، وعلى المطالب الخمسين له، وعلى تصويره للإسلام باعتباره بديلاً عن الأيديولوجيات المتنافسة، وتأسيسه لجماعة الإخوان المسلمين.

ثانياً: ستولي هذه المقالة الاعتبار إلى مفكري القرن العشرين الآخرين الذين قد ساهموا أيضاً في الأدلجة السياسية للإسلام، وعلى رأسهم المودودي وسيد قطب، وأخيراً: ستختم المقالة بتسليط الضوء على فكرة أنّ أفكار البنا تدل فعلياً على الأدلجة السياسية للإسلام، لكن يجب، رغم ذلك،

«توجه الإنسان إلى دفن موتاه في المقابر بعد اقتناعه بفكرة أن الحياة لا تنتهي لكنها تتجدد»

يجب أن يدرك فكر البنا ضمن نزعة «إحيائية جديدة» أوسع لأدلجة الإسلام سياسياً

أن يدرك فكر البنا ضمن نزعة «إحيائية جديدة» أوسع لأدلجة الإسلام سياسياً.

إنّ الأعوام التكوينية للبنا، المميزة بتأثير محافظ وصوفي، وعلى خلفية الزحف الاستعماري، تزامنت مع جدال مستعر حول هوية مصر في مطلع القرن العشرين. والحال أنّ الهيمنة الغربية، التي اجترحها البنا عياناً، وبشكل مباشر، في الإسماعيلية، قد استمرت ضمنياً، رغم الاستقلال الشكلي لمصر، عام ١٩٢٢، اشتمل هذا التداخل، بصورة بارزة، على شكل من أشكال الهيمنة السياسية البينة في نزوع النخبة المصرية القومية نحو الأفكار العلمانية والغربية المعتقدات والممارسات الموروثة المتعلقة بالإسلام، بيد أنّ الانحراف اللاحق تجاه «الإسلام المستعمر والمخضع والمذعن الذي يقبل بكونه محبوساً داخل الفضاء الخاص» (Soage, ٢٠٠٨: ٢٧)، والذي تجسد في إلغاء الخلافة على يد تركيا الكمالية عام ١٩٢٤، قد رسخ في البنا اعتقاداً راسخاً بأن الإسلام، وبالتبعية الهوية المسلمة، كانت ما تزال مهددة من قبل «شيطان الاستعمار» . شكل ذلك الجزء الآخر من رؤية البنا للتاريخ الإسلامي كابتعاد مستمر عن «الإسلام الحق» مجسداً بالنبي، عليه الصلاة والسلام، وأصحابه، رضي الله عنهم، والخلفاء الراشدين.

«يقدم مانيفستو البنا «المطالب الخمسون»، كمخطط لحله السياسي والاجتماعي، دليلاً إضافياً لنزعته إلى أدلجة الإسلام سياسياً، كأداة وظيفية للهندسة الاجتماعية»

وفق البنا؛ أدى هذا الانحراف عن الإسلام الحقّ إلى الانحطاط الإسلامي، وإلى قابليتهم للتعرض لفجور التغريب، والحلّ للتدهور الإسلامي والتدخل الغربي، كما أعلن البنا، إذاً، يكمن في إحياء «الإسلام الحق»، وقد تطلب ذلك تطهير الأمة من ممارساتها ومعتقداتها القائمة، والذي يجب أن يسهل، كما أكد البنا، عن طريق التأسيس التدريجي لدولة إسلامية صحيحة المعتقد وتحفز على الإصلاح وتقوم بتطبيق الشريعة على أكمل وجه. إنّ الحلّ السياسي المقترح من البنا قد مثل، بشكل ملحوظ، «نقطة تحول في الخطاب الإسلامي الحديث عن طريق قيامه بنقلة ناجحة للإسلام إلى أيديولوجيا [سياسية]» ، كأول دعوة لا غموض يشوبها في العالم ذي الأكثرية المسلمة من أجل إنشاء دولة إسلامية. وفق حمزة يوسف؛ فإنّ هذا يلقي الضوء على تحول وابتعاد عن الاعتقاد الراسخ على نحو واسع في أوساط المسلمين، بأنّ «الإسلام هو وحي؛ وحي من الله، وليس أيديولوجيا سياسية، ومن ثم لا يقدم حلاً سياسياً بما هو كذلك».

والحال؛ أنّ الأدلجة السياسية للإسلام لدى البنا، إنّما هي متجذرة في اعتقاده بأنّ «الإسلام نظام كلي شامل يغطي كافة جوانب هذا العالم والعالم الآخر» . بالنسبة إلى البنا؛ فإنّ الدين في حد ذاته شكل جزءاً من «النظام الشامل» للإسلام، كما نظم من خلاله أيضاً، ذلك النظام الذي «ينبغي أن يحكم كافة شؤون الحياة». إنّ الإسلام، كأبعد ما يكون، مقتصراً على محض تقوى شخصية، هو «أيديولوجيا وعبادة، دولة وأمة، دين كما هو حكومة، فعل مثلما هو روحانية، وقرآن وسيف» . وبالتالي؛ يجب أن يجسد الإسلام في تحققات فعلية اجتماعية وسياسية باعتباره الأساس الأيديولوجي للمجتمع، وذلك باعتماده على قدرته الفريدة لتقديم الحلول لكافة المشاكل الإنسانية، لقد استمد هذا التأكيد الأساسي من تأويل البنا للربوبية والحاكمية الإلهية

أسس البنا جماعة الإخوان المسلمين، عام ١٩٢٨

في «كافة المناحي والجوانب في الحياة» . لقد عكست، بصورة ملموسة، دعوة البنا من أجل حاكمية الله في كل قطاع من قطاعات المجتمع في حملته الجديدة للوعظ الديني في المقاهي؛ حيث تحولت من «أماكن للمتعة إلى منصة للدعوة الإسلامية» ، إنّ فهم البنا للربوبية الإلهية قد دفعه أيضاً، بصورة حاسمة، إلى تأويل القرآن الكريم باعتباره مصدراً للفلسفة السياسية وللسياسة. وعليه؛ هذا التأويل جعل من الإسلام أيديولوجيا سياسية استلزمت، إضافة إلى حاكمية الله، الشاملة لكلّ شيء، تنظيم الشريعة لكل جانب من جوانب الدولة والمجتمع، سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي، الشخصي أو العام.

بالنسبة إلى البنا؛ لأنّ الإسلام كان أيديولوجيا سياسية لم تسمح بالتفريق بين الدين والسياسة؛ فقد أكّد أنّ القرآن الكريم قدم سلطة دينية لشرعية «الحوكمة الإسلامية»، إنّ نسق حوكمة الدولة القائم على الحكم الدستوري والشورى كان «أقرب إلى الإسلام» برأي البنا، لقد كانت شرعية السلطة السياسية موقوفة على «التزام الحاكم بالشريعة، ودفاعه عن الأمة ضدّ الهيمنة السياسية والنفسية وتمسكه بالدعوة الإسلامية»، كما تجنّب البنا أيضاً سياسة

«المودودي، هو المعبر عن المسعى الأسبق والنسقي لإعادة دمج الإسلام في أيديولوجيا سياسية باعتبار الإسلام «نظام حياة متناسقاً وذاتي الإحالة»»

التعددية الحزبية القائمة على أساس أيديولوجي في ظلّ الحكومة الإسلامية؛ لأنها تقوض، من وجهة نظره، القيمة الأساسية للوحدة الإسلامية. وتجب ملاحظة أنّ البنا، مع ذلك، أدرك براغماتيا الدولة وحوكمتها، باعتبارها بديلاً ضرورياً، وإن يك مؤقتاً، ومحفزاً للإصلاح؛ حيث تعبد الطريق إلى هدفه الأيديولوجي النهائي: أي استعادة الخلافة.

يقدم مانيفستو البنا «المطالب الخمسون»، كمخطط لحله السياسي والاجتماعي، دليلاً إضافياً لنزعته إلى أدلجة الإسلام سياسياً، كأداة وظيفية للهندسة الاجتماعية، مبعوثاً إلى الملك فارق، يقدم مانيفستو البنا برنامجاً مفصلاً للإصلاح المجتمعي، من خلال أسلمة فوقية لمصر المتجذرة في «الإسلام الحق»، يجمع البرنامج الشامل والكلي لدولته الإسلامية المأمولة الإصلاح السياسي والتعليمي، حتى الإصلاح الاقتصادي؛ بما فيه الإصلاح المصرفي [البنكي] والتوزيع الملائم للزكاة لإصلاح التفاوت الاجتماعي والاقتصادي، علاوة على ذلك، يطمس مانيفستو البنا بين المجالين العام والخاص بدعوته إلى مراقبة الموظفين الحكوميين، وزبائن المقاهي، وكلّ ذلك يقترن بسياسات اجتماعية وثقافية تفرض «الأخلاقية الإسلامية،» من خلال إخضاع الأفلام والأغاني والكتب للمراقبة، ... . كما أنّ مانيفستو البنا يدعو، بشكل جلي، إلى مصرنة منازل البلاد من أجل طرد «الروح الأجنبية» عن ديار المصريين، تلك الروح التي تتعارض، فيما يبدو، مع نظرية البنا الشاملة عن الإسلام، وليس عن القومية المصرية، باعتباره «الترياق» الأيديولوجي الكلي لـ «المعضلات» المصرية السياسية والاجتماعية، بيد أنّ ذلك لا يختزل المدى الذي إليه يدل خطاب البنا على الأدلجة السياسية للإسلام. بالأحرى، إنّ بيانه ليعكس المسعى البراغماتي للتوجه، إستراتيجياً، نحو جمهور حساس على نحو خاص بالمطالبة القومية. يبدي البنا، في الواقع، عدم وجود أي توتر بين الإسلام والقومية المصرية داخل خطابه، مبيناً أنّ «فصل مصر عن الإسلام أمر مستحيل، الأمر الذي يلقي الضوء مزيداً على تأويلي الأيديولوجي والشمولي للإسلام.

تكمن دلالة الأدلجة السياسية للإسلام عند البنا في تشديده على الاكتفاء الذاتي المطلق للإسلام في مواجهة الأيديولوجيات السياسية المتنافسة، فمن منظور البنا؛ فإنّ «البديل الإسلامي» يتجاوز الاشتراكية والرأسمالية والقومية والنزعة الكونية، لأنّ «الإسلام يتناسب مع كافة الأمم وكافة الأزمنة»، و»لا يتجنب الاستعارة من أي نظام جيد، بشرط ألا يتعارض مع مبادئه العامة» . وإثر ذلك؛ فإنّ الحلّ للمظالم الاقتصادية والاجتماعية لمصر، وللحزبية السياسية والتبعية الثقافية يكمن في شمولية القرآن، وليس في الأيديولوجيات «غير الإسلامية»، مثل الرأسمالية أو الماركسية.

وفي تأسيسه لجماعة الإخوان المسلمين، عام ١٩٢٨، اضطلع البنا أيضاً، بصورة واضحة، بأدلجة سياسية راسخة للإسلام، فمن أجل تحقيق نظامه السياسي والاجتماعي المثالي عبر صراع إحيائي أخلاقياً ضدّ الهيمنة الأجنبية، أسس البنا جماعة الإخوان المسلمين كحركة «تعيد تشكيل المعايير والقيم والممارسات الاجتماعية لتكون أكثر إسلامية» ، الأكثر حسماً من ذلك؛ أنّ البنا لقح تأويله للإسلام باعتباره أيديولوجيا سياسية تقتضي نشاطاً اجتماعياً وسياسياً كلياً في الحركة التي أسسها، وقد انعكس ذلك بوضوح على تعريفه متعدد الأوجه لجماعة الإخوان المسلمين كـ «دعوة سلفية، وطريقة سنّية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية وثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية» . ومن ثم، بزرعه بذور، كما يقال، «الحركة الإسلامية الإحيائية الأكثر تأثيراً في القرن العشرين»، فإنّ البنا قد رسخ بشكل أساسي تأويله للإسلام كطريقة حياة شاملة، يستمر هذا الإرث الأيديولوجي اليوم عبر الهدف الدائم لجماعة الإخوان المسلمين لتطبيق الشريعة باعتبارها العمود الفقري للدولة والمجتمع.

لكن مع ذلك، وكما يلاحظ حسين، فإنّ «الأدلجة السياسية للإسلام ليست أحادية ولا متجانسة؛ بل هي متعددة المراكز، وتعددية، وغير متجانسة، ولها أوجه عديدة»، ووفق ذلك، سيكون من الخطأ توصيف البنا باعتباره المنبع الوحيد لأدلجة الإسلام السياسية، بالنظر في فكره بمعزل عن المفكرين «الإسلامويين» الآخرين الذين قد أولوا الإسلام كأيديولوجيا سياسية؛ فمثلاً، يدّعي هارتونغ أنّ المفكر المسلم الهندي والمؤسس البارز للجماعة الإسلامية، السيد أبو الأعلى المودودي، هو المعبر عن المسعى الأسبق والنسقي لإعادة دمج الإسلام في أيديولوجيا سياسية باعتبار الإسلام «نظام حياة متناسقاً وذاتي الإحالة»، تأتى هذا من تأويل المودودي للإسلام كنظام «شامل وكلي يتطابق مع

الترتيب الإلهي للكون» ، وبالمثل؛ فإنّ سيد قطب أيضاً، وهو إخواني بارز لاحق الذي استوحى من أفكار البنا وقام بردكلتها، نظر إلى الإسلام كأيديولوجيا سياسية شاملة، وتبنى، إثر ذلك، نظاماً سياسياً واجتماعياً إسلامياً شاملاً، كحلّ نهائي للتحديات المتنوعة التي يجابهها العالم ذو الأكثرية المسلمة. وبالتالي، فإنّه من الجوهري أن نفهم فكر البنا كنزعة تأسيسية أولى لنزعة «الإحيائية الجديدة» في القرن العشرين، الموضحة أعلاه، تلك النزعة الموحدة بتبني مشترك لـ «الاكتفاء الذاتي الكلي للإسلام»، ومناصرة التحول المجتمعي القائم على شكل «نقي» وسابق للإسلام؛ من أجل مواجهة الهيمنة الغربية.

وإنّه لمن الحيوي، بالقدر نفسه، أن نقيم بعض الراوبط بين الأدلجة السياسية للإسلام عند البنا مع مفكرين آخرين من الإحيائيين الجدد المعاصرين، يجلي كل من أوبن وزمان هذه النقطة بصورة واضحة، محاججين بأنّ «كثيراً من المواقف والحجج المتعلقة بسيد قطب والمودودي والخميني هي صياغة نسقية عن رؤية للعالم هي واضحة بالأصل في نموذج الإصلاح السياسي الاجتماعي الذي تركه البنا»، وفي ضوء هذه المعلومة الصحيحة؛ فإنّ تصور البنا للإسلام كنسق من الأفكار لإعادة بناء المجتمع تماماً لا يمكن تصويره إلا على أنه يدل على أدلجة سياسية للإسلام، بيد أنه يمكن وصفه في بعض النواحي كتجسيد للنزعة الإحيائية الجديدة لأدلجة الإسلام سياسياً.

خلاصة القول: إنّ فكر البنا يشير، إلى حدّ كبير، إلى الأدلجة السياسية للإسلام في القرن العشرين؛ فعن طريق تأويل الإسلام كنسق شامل من الأفكار وكحل نهائي يجب استعماله وظيفياً لضبط كلّ جانب من جوانب الدولة والمجتمع والوجود الإنساني، بشكل أعمّ؛ فإنّ خطاب البنا يجسد فهماً للإسلام باعتباره أيديولوجيا سياسية شاملة، يتبدى هذا بشكل جلي في تشديدات البنا على أنّ الإسلام هو الأساس الضروري لإدارة الدولة؛ أي كأداة وظيفية لهندسة اجتماعية وكبديل لكافة الأيديولوجيات السياسية المتنافسة، الأكثر أهمية، هو أنّ البنا، بتأسيسه لجماعة الإخوان المسلمين، قد كفل أيضاً تجسيداً راسخاً لرؤيته للإسلام كنسق شامل يضبط الحياة الفردية والشؤون العمومية، بيد أنه مع ذلك، ما يزال من المهم أن نقيم الإسهام المؤثر للبنا ضمن اتجاه إحيائي جديد أوسع لأدلجة الإسلام سياسياً، من أجل تطبيب الهشاشة الإسلامية الملحوظة تجاه الهيمنة الغربية.

المظلومية التاريخية لدى الإخوان.. معضلة التأسيس للإيديولوجيا والتنظيم بعد حسن البنا

حنان جابلي
صحفية تونسية

بات من الواضح للمتمعن في تاريخ جماعة «الإخوان المسلمين» أنّها تتقن جيّداً خطاب المظلومية كلّما ضاق عليها الخناق، باعتباره واحداً من أبرز أدوات الحشد التي تمتلكها اليوم، برغم أنّه فقد تأثيره منذ زمن، بسبب انكشاف أغلب ألاعيبها.

وبحسب نشاط الجماعة على مرّ التاريخ، يمكن توثيق أنّ صدام الجماعة التقليدي مع الحكومات السياسية خلال (٩) عقود، الأمر الذي رافقها على مدار تاريخها، لم يترك أثره المباشر والفوري على رأسمالها الرمزي الخاص إلا مع لحظة وفاة المؤسس حسن البنا، لتمرّ بعدها إلى هذه الكتل النفسية (المظلومية)، تحت وطأة الأزمات التنظيمية والسياسية، ثم توظيفها الاستراتيجي بعد فترة وجيزة من وفاة البنا، بحسب قراءة تحليلية لخطاب الإخوان بعد حسن البنا.

التحليل الذي كتبه الكاتب كريم شفيق، ونشره موقع (قنطرة) تحت عنوان «الإخوان المسلمون وخطاب المظلومية... إخوان ما بعد حسن البنا: معضلة التأسيس الثاني للإيدولوجيا والتنظيم»، تناول مفهوم المظلومية الذي احتل موقعاً مركزياً في الأدبيات الإخوانية، كونه يساهم في تجسير الصلات وتمتين العلاقات بين كوادر وعناصر التنظيم.

حتمية المحنة في تجربة الدعوة

المقال التحليلي لفت إلى وجود جذور وشروط مؤسّسة للمظلومية في رسائل البنا، الذي ألمح فيها (٢٥ رسالة) إلى أنّ الصدام مع الأنظمة السياسية أمر محتوم، ومن ثم، حدوث الخصومة وتوقع النتائج والمآلات الصعبة. واستند إلى ما قاله البنا في رسالته: «بين الأمس واليوم»: «أحب أن أصارحكم أنّ دعوتكم ما زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية».

وعرج البنا، بحسب المصدر نفسه، في الرسائل ذاتها على حتمية المحنة في تجربة الدعوة وفق ما جاء في رسالة «التعاليم»، التي تحمل إنذاراً بالعنف الموجه ضد المجتمع الذي يقف ضدهم، فيقول: «الإخوان المسلمون سيستخدمون القوة العملية، حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثقون أنّهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء، وسينذرون أوّلاً، وينتظرون بعد ذلك، ثم يقدمون في كرامة وعزة، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضا وارتياح».

وقد أثار انتباه الكاتب أنّه في الفترة بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٤، وهي اللحظة التي أعقبت وفاة البنا بعام، وامتدت حتى الصدام مع سلطة تموز (يوليو) الجديدة والناشئة بعد سقوط الملكية في مصر، سجلت وفرة في كتابات الإخوان بوساطة مجموعة من الكوادر التنظيمية، وتنامت مساهماتهم على أكثر من مستوى.

وطوال حياته كان مؤسس الإخوان هو الذي يقرر كل شيء، وهو الذي يحدد خط التنظيم في ضوء تطورات الموقف السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني. ولم يكن هذا الإنتاج الذي تركه كافياً، بحال من الأحوال، لمعالجة كل المشاكل والتحديات التي واجهها الإخوان بعد موته، خاصة خلال محنة عام ١٩٥٤.

أدلجة الصراع مع السلطة وتصنيف نظام عبد الناصر وحكومته بأنّها «جاهلية»

يرى الكاتب المصري أنّ أزمة عام ١٩٥٤، وانتقال الجماعة من حليف للنظام، بل ورديف سياسي له، إلى خصم، كشفت عن معضلة المحنة الكبرى المتمثلة في ضعف وعدم إمكانية التعاطي مع هذا الصراع من الناحيتين السياسية والإيديولوجية.

ولذلك، كان سيد قطب هو الذي ملأ هذا الفراغ الإيديولوجي من خلال مؤلفاته النظرية التي كتبها بالسجن في الفترة بين

«البنا ألمح في رسائله إلى أنّ الصدام مع الأنظمة السياسية أمر محتوم، ومن ثم حدوث الخصومة وتوقع النتائج والمآلات الصعبة»

عامي ١٩٥٤ (عندما تم اعتقاله أول مرة) و١٩٦٤ (عندما أطلق سراحه لفترة وجيزة، ليعاد القبض عليه مرة أخرى وتجرى محاكمته وينفذ فيه حكم الإعدام عام ١٩٦٦).

وبحسب استقراء الكاتب، فقد نجح سيد قطب في توظيف فكرة المظلومية في سياق آخر وعلى مستوى حركي أكثر عمقاً وتنظيماً، حيث أضحت المحنة التي سيتم التأصيل النظري لها في التأسيس الثاني للجماعة من خلال ما سيعرف بـ «فقه الابتلاء» و«فقه الثبات» و«فقه المحنة»، ضرورة أو عتبة رئيسية للوصول إلى مرحلة التمكين. أي تمكين الفئة المصطفاة الثابتة التي لم تهتز الأرض أسفلها، أو تتعرض لخرق في ما يخص إيمانها العقيدي، وفق التعبير القرآني: «وليمحص الله الذين آمنوا».

واستندت القراءة التحليلية إلى حادثة المنشية التي حاول من خلالها الإخوان تدبير عملية اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر، ليتم إلقاء القبض على سيد قطب وآخرين، وقد حُكم عليه بالمؤبد، قضاها بين سجن طرة والمستشفى الملحق به.

وفي هذه الفترة عكف قطب على كتابة تفسيره للقرآن تحت عنوان «في ظلال القرآن»، بل إنّه نشر مؤلفه في صورة كُتيّب وطبعه في القاهرة، فضلاً عن كتابات أخرى عديدة. كما بدأ في عام ١٩٦٢ كتابة الفصول الأولى من كتاب «معالم في الطريق».

ولاحقاً بعد الإفراج عنه، تم ضبط نسخ من «معالم في الطريق»، في كل المنازل التي جرت مداهمتها.

وكتاب سيد قطب «معالم في الطريق» يُعدّ بمثابة وثيقة نظرية تعكس حدود وأطر الصراع الإيديولوجي الذي تشكل بين الجماعة (جناحها القطبي تحديداً الذي سيتشكل لاحقاً ويتبنى تلك الأفكار والمقولات المتشددة والراديكالية) من جهة، والنظام والدولة المصرية في عقود لاحقة وممتدة من جهة أخرى. وقد تضمن الكتاب جملة المبادىء التي عدّها الإسلاميون الحركيون بمثابة البرنامج العام (أو المينافستو) الذي التزمت به أجيال عدة من الإسلام السياسي.

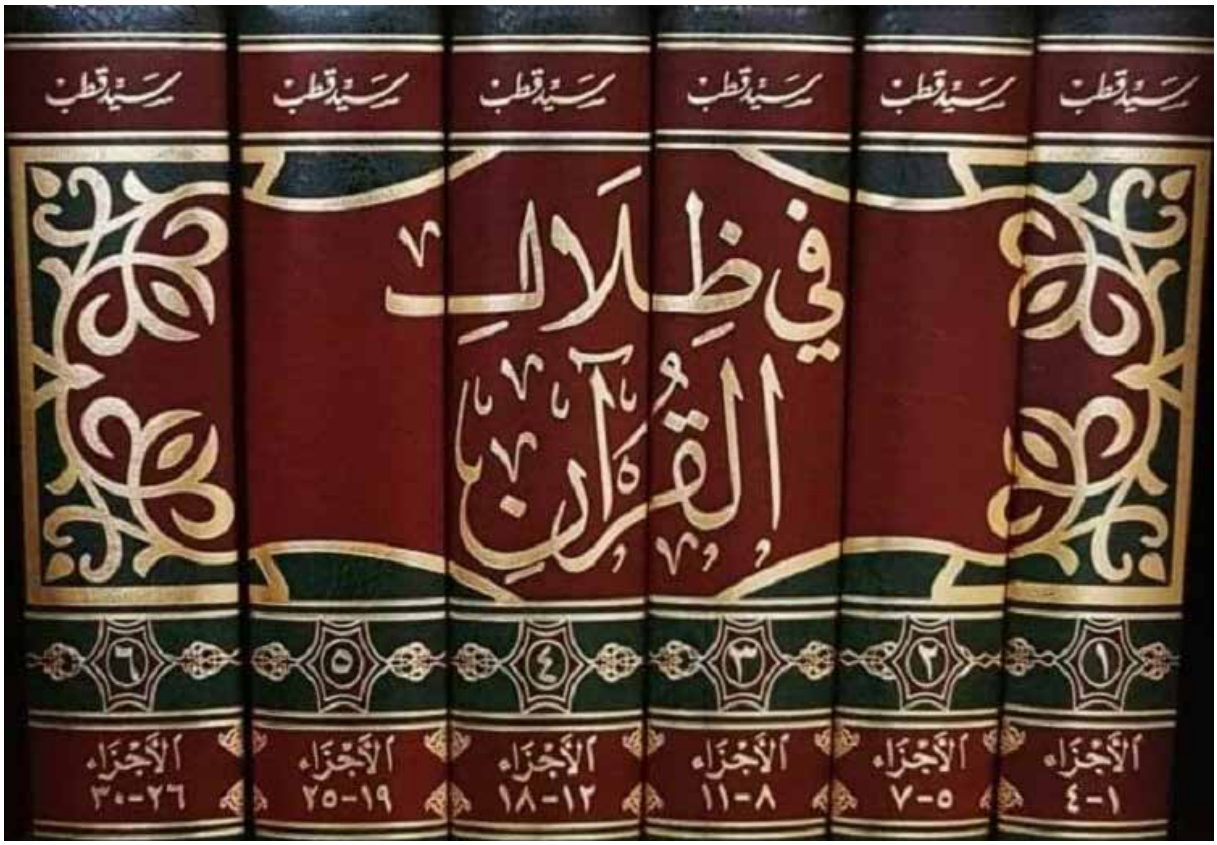

«في ظلال القرآن» لسيد قطب

«نجح سيد قطب في توظيف فكرة المظلومية في سياق آخر وعلى مستوى حركي أكثر عمقاً وتنظيماً»

ويُعدّ كتاب «معالم في الطريق» وثيقة نظرية تعكس حدود وأطر الصراع الإيديولوجي بين الجماعة من جهة، والنظام والدولة المصرية» من جهة أخرى، وقطيعة تامة مع منهج البنا.

ولئن كانت «الجاهلية» نقطة الانطلاق المحورية التي اعتمد عليها قطب لتحقيق أهدافه النظرية والعملية، فإنّ ذلك عنى، بحسب المقال، التطبيق القسري داخل المجتمع المعاصر الذي هو بالأساس «صورة متطورة لهذه الجاهلية»، وخلق «العصبة المؤمنة» و«الجيل القرآني» الذي يقف على مسافة حادة وحيادية تجاه مجتمعه في حالة من «العزلة الشعورية»، دون ارتباط عضوي أو انتماء أو التماس هوية فيه.

لماذا قدّم الإخوان 3 تفسيرات مختلفة لرسالة التعاليم لحسن البنا؟

طارق أبو السعد
كاتب مصري

كتب حسن البنا القليل من الكتب، وبعض الرسائل، والكثير من المقالات، وما حظي من ذلك بالاهتمام الحقيقي رسائله الخاصة لجماعته، وأشهرها على الإطلاق رسالة «التعاليم» التي كتبها العام ١٩٣٨، وتشكّل، مع رسالة «المؤتمر الخامس»، المكوّن الفكري الأهم والحقيقي لحركة الإخوان المسلمين والإسلام السياسي من بعد، فقد وضع البنا فيهما خلاصة مشروعه، وأوضح طرق تنفيذه ومراحل تكوينه، كما رسم بدقّة دور كلّ عضو في التنظيم، بحسب كلّ مرحلة، لهذا قدّم البنا رسالته الى طائفة خاصّة من الإخوان، أطلق عليها «الإخوان المجاهدين»، وهم أفراد النظام الخاص، وظلّ لعشرة أعوام يشرحها لتلك الفئة المخصوصة المصنوعة على عينه، كانت رسالة «التعاليم»، ومعها رسالة «المنهج»، نصاً سرياً لمجموعة مخصوصة، لهذا كانت شروحهما غير معلنة للعامة، فلم يدوّن البنا مراده من كلّ جملة في الرسالة، مكتفياً بما لقنه شفوياً وعملياً لتلك المجموعة.

لكنّ الغريب؛ أنّ الإخوان أعادوا إنتاج تلك الرسالة ثلاث مرات، مع شرح جديد في كلّ مرّة لها! ولا أحد يعلم لماذا لم يقدموها بشرح حسن البنا نفسه؟ رغم أنّ كثيراً ممّن حضروا شرح الرسالة من كاتبها الأصلي، كانوا ما يزالون على قيد الحياة وقت كتابة تلك الشروح.

المرة الأولى كانت العام ١٩٥٢، بشرح عبد المنعم تعيلب، الإخواني الشاب الأزهري، ثمّ قدموها العام ١٩٨٠ بشرح سعيد حوى، الإخواني السوري، بشرح مختلف تماماً عمّن سبقه، ثم بعد عشرة أعوام؛ أي في العام ١٩٩٠، ظهر شرح ثالث لمحمد عبد الله الخطيب، مفتي الإخوان

«قدّم البنا رسالته الى طائفة خاصّة من الإخوان وظلّ لعشرة أعوام يشرحها لتلك الفئة المخصوصة»

الأزهـري، والملاحـظ أن تركـيز الإخـوان الفكريّ انصب على جزء من الرسالة، وهي الأصـول العـشرون للفهـم، وتقديمها كأنّها مـن متطلبـات إيمـان المسـلمين.

تشـير المعطيـات إلى أنّ الإخـوان المسـلمين اسـتخدموا رسـالة التعاليـم، باعتبارهـا «مانفيسـتو المـشروع الإسـلامي» بصـورة براجماتيـة، فمـع كلّ متغـيّر في الحيـاة السياسـية، يقـوم الإخـوان بطـرح مشروعهـم الإسـلامي عـبر إعـادة طـرح رسـالة «التعاليم» و«الأصـول العـشرون للفهـم»، مـع شرح مختلـف يوهـم القـارئ أنّ حسـن البنـا كتبها مـن أجـل هـذا الغـرض.

أولاً: رسالة «التعاليم» باعتبارها أساساً للبيعة:

في مطلـع الخمسـينيات، بعـد مقتـل البنـا، وقيـام ثـورة يوليـو؛ قـدّم الشـاب الأزهـري، عبـد المنعـم تعيلـب، كتيّبـاً يـشرح فيـه رسـالة «التعاليـم»، وضـع لـه عنوانـاً كبـيراً؛ هـو «البيعـة»، ومعلـوم أنّـه، مـع ثورة يوليـو، حدثـت متغـيرات في السياسـة، وأنّ قـوة شـعبية جديـدة أخـذت تتولـد. فظهـرت حاجـة الإخـوان إلى شرح جديـد لرسـالة «التعاليـم»، فقـد كانـت قديمـاً تخاطـب أعضـاء بعينهـم في الجماعـة «إخـوان النظـام الخـاص»، خطابـاً سرّيـاً، وليـس عامـاً، وقـام حسـن البنـا بـشرح رسـالته، في لقـاءات خاصـة وسريـة، أمّـا عـلى أعتـاب ثـورة يوليـو، أو بُعيـد الثـورة بأسـابيع، (نظـراً إلى تاريـخ طبـع الرسـالة)، أخـذ تعيلـب يغـازل الضبـاط الأحـرار، بقولـه: «كلّ جنـديّ لا بـدّ مـن أن يقسـم يمـين الـولاء، وولاؤك لله لا يكـون إلّا بعهـد بينـك وبينـه، أن تدافـع عـن الإسـلام حـتى لا تكـون فتنـة، ويكـون الديـن كلّـه لله، أو تمـوت دون ذلـك»، ثـم يقـول، بعـد عـدة سـطور: «والجنـود وحدهـم هـم المدعـوّون لهـذه البيعـة، وسـترى مـن إيجازهـا ووضـوح ألفاظهـا أنّهـا إلى الأوامـر العسـكرية أقـرب منهـا إلى الأسـاليب الخطابيـة، فهـي تحتـاج إلى عزيمـة وحـزم أكـثر ممـا تحتـاج إلى اسـتذكار وحفـظ، فاعمـدوا إلى العمـل أيّهـا المتبايعـون».

ويُلاحَـظ هنـا أنّ الرسـالة قُدّمـت باعتبارهـا تعليمـات وأوامـر يلقيهـا قائـد لجنـوده العسـكريين، الذيـن يجـب أن تكـون لهـم بيعـة لله!! وكأن الإخـوان بذلـك يتقربـون مـن الضبـاط الأحـرار، ويذكّـرون بعضهـم بما

كان بينهم وبين البنا من عهد قبيل الثورة.

فجاء شرح تعليب مليئاً بالإشارات العسكرية، وحافلاً بالإيماءات التي لم يكن يقصدها البنا، وداخل شرح الرسالة الكثير من التلميحات لكيفية تكوين الحكومة الإسلامية، لكن «شهر العسل» مع السلطة الجديدة لم يطُل، وما لبث الإخوان أن دخلوا في صدام مباشر مع ثورة يوليو، بدءاً من منتصف الخمسينيات إلى نهاية الستينيات، حتى أفرج عنهم الرئيس الأسبق، أنور السادات، وسمح لهم بالعمل الدعوي والعام داخل المجتمع العربيّ والإسلاميّ.

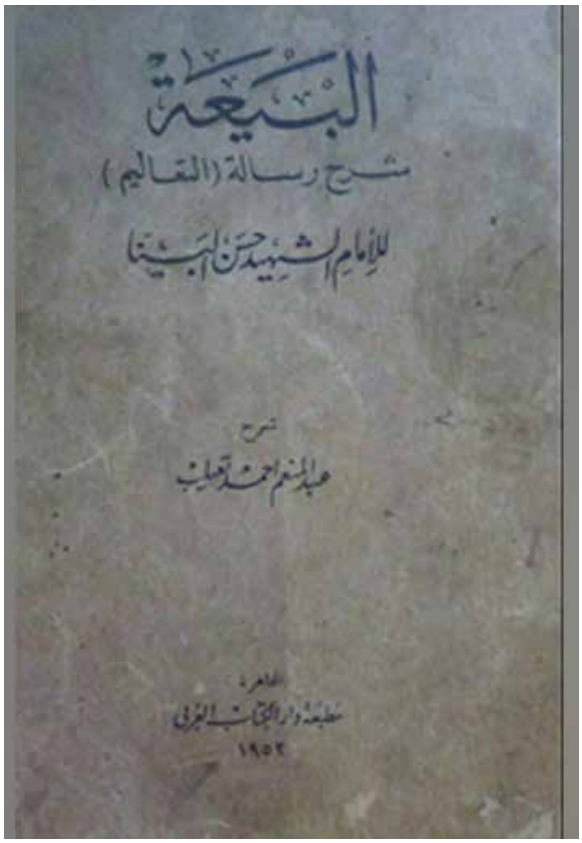

غلاف كتيب «البيعة» والذي يحوي شرح «رسالة التعاليم»

ثانياً: نظرية في العمل الحركي الإسلامي

ومع عودة الإخوان في السبعينيات، تغيّرت ملامح المشروع الإسلامي، فظهرت الحاجة إلى كتب يجتمع عليها الشباب الإسلامي المستهدف بالتجنيد، فقامت مجلة «الدعوة» في السبعينيات بإعادة طباعة رسائل حسن البنا، منفصلة أو مجمعة، بهدف تحسين صورة الحركة الإسلامية الصاعدة بعد عهد الصدامات، والتبرؤ من أفكار سيد قطب مؤقتاً، بارتداء ثوب الدعاة، والتوقف عن العنف وحمل السلاح، ولم يجدوا أفضل من حسن البنا للقيام بهذا الدور لربط الحركة الدينية الوليدة بهم.

واجه الإخوان مشكلة ارتداء هذا الثوب الجديد في السبعينيات، فرسالة التعاليم تتنافى صراحة مع التوجه الجديد بنبذ العنف؛ ففيها التصريح باستخدام السلاح، والخروج على المجتمع، وعلى الحاكم أيضاً، فأسقط في أيديهم، ولم يكن يصلح مع تلك المرحلة إعادة نشر شرح عبد المنعم تعليب، فكان لا بدّ من تقديم رسالة «التعاليم»، بشكل مخفف ومخاتل، فطلبوا من سعيد الحوى، الكاتب الإخواني السوري الجنسية؛

«جاء شرح تعيلب مليئاً بالإشارات العسكرية وحافلاً بالإيماءات التي لم يكن يقصدها البنا»

أن يكتب في شرح هذه الرسالة، على أن يصبّ شرحه في الهدف المطلوب، وهو تمويه فكرة «استخدام الإخوان العنف والسلاح في التغيير»، والرغبة في القفز على السلطة؛ لهذا لم يأتِ كتاب حوى «في آفاق التعاليم»، باعتباره شرحاً للتعاليم؛ بل أقرب إلى تقديمها باعتبارها نظرية حركية في العمل الإسلامي تمتلك مقوّمات بناء الشخصية الإسلامية الجديدة، أو التي يسعى الإخوان إلى خلقها.

جاءت «آفاق» حوّى ضمن مشروعه الذي أطلق عليه «في البناء الإسلامي»، وشمل كتباً مثل: «جند الله ثقافة وخلقاً»، وكتاب «من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك»، ثم كتابه الشهير «المدخل لدعوة الإخوان المسلمين»، وفي «في آفاق التعاليم» كثيراً ما استشهد بكتاباته من الكتب السابقة.

سعى سعيد حوى لإقناع القراء بأنّ مراحل تنفيذ مشروع حسن البنا (التعريف- التكوين- التنفيذ)؛ إنما هي مراحل الدعوة للإسلام ذاته؛ من مدخل تعريف الناس بالإسلام الحقيقي، ثمّ يتمّ تكوين المؤسسات الإسلامية، ثمّ تأتي مرحلة تطبيق الإسلام ذاته في تلك المؤسسات، رغم أنّ البنا كان يراها مراحل عمل عضو الإخوان في التنظيم، وهذا الطرح كان مناسباً لمرحلة السبعينيات لتجميع كلّ الشتات الإسلاموي في وعاء واحد، وهو الإخوان المسلمون، وانتهت تلك المرحلة بعد اغتيال الرئيس السادات بأيدي الإسلامويين أنفسهم، واحتاج الإخوان إلى أن يكونوا أكثر وضوحاً، وأن يكون مشروعهم أكثر تميزاً من بين فصائل العمل الإسلاموي، فأعادوا شرح «التعاليم» باعتباره فكراً تربوياً.

ثالثاً: ثوب الركيزة التربوية

من منتصف الثمانينيات من القرن الماضي؛ كان على الإخوان المسلمين أن يتمايزوا عن باقي فصائل الحركة الإسلاموية، فاختاروا أن توسم جماعتهم بأنّها تسعى إلى التغير عبر ركيزة التربية، فأعلنت أنّ مشروعها تربوي فقط، قائم على إعادة تكوين مقومات الشخصية المسلمة، مع عدم إنكار باقي الركائز، والجماعات الجهادية التي تؤمن بالتغيير باليد؛ أي السلاح، مثل

«لمواكبة التيار السلفي وتأصيلاته اختار الإخوان الشيخ محمد الخطيب للشرح الثالث «نظرات في رسالة التعاليم»»

الجهاد والجماعة الإسلامية، وجماعات التثقيف الإسلامي مثل: السلفية العلمية، أو السلفية الحركية، فلم يكن أمامهم إلا إعادة إنتاج رسالة التعاليم وفق شرح جديد لصالح فكرة التربية، وتكوين الفرد المسلم، وفق تأصيل شرعي، لا حركي، وتحويل الرسالة التي كانت لفئة مخصوصة سرية، إلى منهج تربوي للجميع، وكأنّ البنا كتبها لعموم المسلمين!

سعيد حوى

واجه الإخوان مأزقاً جديداً هذه المرة، تمثّل في الملاحظات الشرعية على جماعة الإخوان، تلك الملاحظات كانت كافية لإفساد مخططها في السيطرة على العمل السياسي والتربوي والدعوي، خصوصاً أنّها جاءت من التيار السلفي، الذي كان قد تميز عليهم بتأصيله الشرعي لحركته، وبالتالي؛ لم تكن تصلح إعادة نشر رسالة التعاليم بشرح تعيلب ولا حوى؛ لهذا اختار الإخوان لتلك المهمة أحد أقطاب الإخوان الشرعيين، وهو الشيخ محمد الخطيب، فجاء كتابه بعنوان «نظرات في رسالة التعاليم».

يستهل الخطيب شرحه للرسالة باعتبارها مسؤولية كبرى، وأنّه «غير أهل لشرح كلمات المؤسس حسن البنا»، إلا أنه سيقدم على المهمة؛ نظراً إلى أهميتها، ثم يقول عن الرسالة نفسها: «الحديث عن رسالة التعاليم وما حوته من توضيح لطريق الدعوة وبيان لمعالم المستقبل، قد وضعت قدم المسلم على بداية الطريق للوصول إلى الهدف، وهو أن

«مع السبعينيات كان لا بدّ من تقديم رسالة «التعاليم» بشكل مخفف ومخاتل وتولى المهمة سعيد الحوى»

تكـون كلمـة الله هـي العليـا في هـذا الكـون، إنَّ الحديـث عـن هـذه الرّسـالة مـا هـو إلا سياحة في جوانبها، وليس شرحاً لها بالمعنى التقليـدي المعـروف، وإن شـئت فقـل هـي قـراءة جديـدة لهـا».

ويقـول أيضـاً: «المكانـة الخطـيرة الـتي تحتلها هـذه الرسالة، والـدور بالـغ الأهمية، الـذي أراده لها أن تضطلع بـه في بنـاء الصفّ المؤمـن السـليم»، موضحـاً: «جـاءت رسـالة «التعاليـم» نموذجـاً فريـداً، يجـدد بدقـة ويرسـم بعنايـة ضوابـط الفهـم ودعائـم التربيـة وأصـول الحركـة لجماعـة الإخـوان المسـلمين»، فجـاء هـذا الكتـاب ضمـن مـشروع كبـير تبنتـه الجماعـة لتثقيـف الصفّ الإخـواني، تحـت عنـوان «سلسـلة نحـو النور».

تقـدم هـذه المحطـات الثـلاث تكتيـكات الإخـوان الدائمـة في إعـادة تدويـر مشروعهـم وفـق واقـع الحـال، لتناسـب في كل مـرة اللحظـة التاريخيـة الـتي يمـرون بهـا، وفي كلّ مـرّة يزعمـون أنّ هـذا هـو مـا كان يقصـده البنـا، حـتى لـو أدى ذلـك إلى تناقضـات ظاهـرة!

جذور الحاكمية عند حسن البنا

أحمد بان
كاتب مصري

شاع لدى كثير من المراقبين أنّ الحاكمية، كمفهوم عقائدي، لم تظهر في أفكار الجماعات المتطرفة إلا عندما نقلها سيّد قطب عن المودودي، باعتبار تلك الفكرة نتاجاً طبيعياً للعزلة النفسية والشعورية التي أحاط قطب وأتباعه أنفسهم بها، فألقتهم في أسر الماضي، الذي بدأ الخلاص من نير واقع لم يقبلهم يوماً ولم يقبلوه، لكنّ التفتيش في أدبيات الإخوان المسلمين، وتحديداً رسائل حسن البنا، يظهر أنّ الحاكمية تجد لها جذوراً لدى الأفكار المؤسسة للجماعة.

خلط متعمد

يظهر ذلك في الخلط المتعمد بين الشريعة كمنظمة قيمية عنيت بتحقيق المصالح وحفظ المقاصد؛ من دينٍ ونفسٍ ونسلٍ وعرضٍ، وهو ما أكّدته المفاهيم الراسخة في الفقه السنّي، ومنها مقولة الإمام الشاطبي: «إنّ وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل»، ومدونات الفقه القديمة، التي لم تكن سوى ثمرة متجددة تناسب العصر الذي ولدت فيه؛ حيث جسّدت في النهاية رحلة العقل المسلم في مواجهة النص على ضوء الواقع المتغير، وبالتالي يتغير الفقه والحكم والفتوى، لكنّ القيم المركزية؛ كالرحمة والتسامح والعدل والشورى والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر، وغيرها من القيم المعتبرة، لا تتغير.

يتوخى المشرّع دوماً مصالح العباد؛ المصلحة متغيرة تتطوّر وتتغير، بينما النصّ والفتوى لا يستطيعان ملاءمة هذه الحركة، إلا بمواكبة هذه المصلحة، واستنطاق النصّ بحسب الواقع من دون المسّ بالأصول، هذا الطرح العقلي المنطقي الذي ينسجم مع الفطرة الصحيحة، يرفضه حسن البنا، كما فعل سيّد قطب، وجماعات التطرف؛ التي تريد لنا أن نركب آلة الزمن، ونعود بالمجتمعات إلى واقعها قبل نشأة الدولة، لنبقى في مرحلة طفولة العقل البشري، التي لم تكن قد أنجزت بعد صيغ الدولة

«التفتيش في أدبيات الإخوان وتحديداً رسائل حسن البنا يظهر أنّ الحاكمية تجد لها جذوراً لدى أفكارهم المؤسسة»

الحديثة، التي تتوزع فيها السلطات بالشكل الذي يضمن حصار الاستبداد، وتتيح الفرصة لكلّ عناصر المجتمع أن تكون شريكة في إدارة مقدراتها.

أنجزت التجربة الغربية فكرة الدولة الوطنية، وفكرة البرلمان الذي يشرّع للناس، بحسب خياراتهم الحضارية، وبدا القوم كما لو كانوا يستهدون بما أسماه الإمام محمد عبده «الهدايات الأربعة»؛ العقل، والنقل، والتجربة، والوجدان.

العقل المسلّح بالمعرفة والعلم، والنقل الصحيح الذي يسعفه بالصحيح النافع، هو ما يحقّق المصلحة المرجوة التي دعا إليها الإسلام، والتجربة البشرية المفتوحة التي أهدتنا العديد من النظم والقواعد التي نظمت العديد من مساحات حياتنا من دون أن تتناقض مع جوهر ديننا تعد مثالاً واضحاً على ذلك.

معاداة التلاقح الحضاري

يناهض حسن البنا وجماعاته هذا التصور ويرونه شكلاً من أشكال الهزيمة، فلا يفهم فكرة التلاقح الحضاري، ولا أنّ العلم هو منجز إنساني مشترك، ويعتقد أنّ دوره هو وجماعته ينصبّ في مناهضة هذا الواقع، والصراع مع هذا العالم، الذي اهتدى إلى حلّ العديد من المشكلات، التي أشعلت الحروب، وأزهقت ملايين النفوس، وبدّدت ثروات الشعوب، فيقول متحدثاً عن المهمة «المقدسة» لجماعته:

«ما مهمتنا، إذاً، نحن الإخوان المسلمين؟ أمّا إجمالاً؛ فهي أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة، وحضارة المتع والشهوات، التي جرفت الشعوب الإسلامية، فأبعدتها عن زعامة النبي، صلّى الله عليه وسلّم، وهداية القرآن، وحرمت العالم من أنوار هديها، وأخّرت تقدمه مئات السنين، حتى تنحسر عن أرضنا، ويبرأ من بلائها قومنا، ولسنا واقفين عند هذا الحدّ؛ بل سنلاحقها في أرضها وسنغزوها في عقر دارها، فلا تكون فتنة، ويكون الدين كلّه لله»، أي إنّ الرجل لن يكتفي بإفساد حياة الشعوب العربية والإسلامية بل يسعى لنقل المعركة إلى الدول الأخرى بهذه الروح العدائية التي لا تفرّق بين السياسة والحضارة والمدنية.

ثمّ يعود ليفصّل في الرسالة نفسها التي أسماها (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن): «أما مهمتنا تفصيلاً؛ فهي أن يكون في مصر أولاً، بحكم أنّها في المقدمة من دول

«سيّد قطب وجماعات التطرف تريد أن تعود بالمجتمعات إلى واقعها قبل نشأة الدولة»

الإسلام وشعوبه، ثم في غيرها كذلك: نظام داخلي يتحقّق به قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، ونظام للعلاقات الدولية: يتحقّق به قول القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، ونظام عمليّ للقضاء: يستمدّ من الآية الكريمة: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ونظام للدفاع والجندية: يحقّق مرمى النفير العام: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ونظام اقتصاديّ استقلاليّ: للثروة والمال والدولة والأفراد، أساسه قوله تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾».

وكدأب الإخوان في التمسح بالنصوص القرآنية لتبرير أهدافهم السياسية المبطنة يدعو البنا إلى «نظام للثقافة والتعليم: يقضي على الجهالة والظلام، ويطابق جلال الوحي في أول آية من كتاب الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ونظام للأسرة والبيت: يُنشئ الصبي المسلم والفتاة المسلمة والرجل المسلم، ويحقق قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، ونظام للفرد في سلوكه الخاص: يحقق الفلاح المقصود بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

ويختم بقوله: «نحن نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والدولة التي تقود الدول الإسلامية، وتضمّ شتات المسلمين، وتستعيد مجدهم، وتردّ عليهم أرضهم المفقودة، وأوطانهم المسلوبة، وبلادهم المغصوبة، ثم تحمل علم الجهاد ولواء الدعوة إلى الله، حتى تسعد العالم بتعاليم الإسلام».

انتهى هذا البيان البلاغي؛ الذي يعدّه الإخوان البرنامج السياسي لهم، والذي شكّل الإخوان الوزارة في مصر العام ٢٠١٢ على هديه، والذي عاين المصريون تحديداً «منجزاته» عبر عام الجماعة في السلطة، وتمثل فعلياً بالحرص على تمكين السلطة الإخوانية في جميع مفاصل الدولة، والتنكر لكل ما زعمته قبل ذلك من شعارات المشاركة وعدم الاستئثار بالحكم.

تصور مغلق للإسلام

الاسم «المفتاحي» لهذا البرنامج؛ هو حاكمية الشريعة بمفهوم الإخوان، التي لم يعرّفها أحد من الإسلاميين تعريفاً مانعاً جامعاً، رغم أنّ الشريعة في حقيقتها مفهوم

«العقل المسلّح بالمعرفة والنقل الصحيح هو ما يحقّق المصلحة المرجوة التي دعا إليها الإسلام»

أيسر من كلّ التعقيد الذي قدموه بها، إنها المنظومة القيمية التي تحقق مصالح الإنسان؛ لذا تبدو كلّ صيغة ينتجها البشر ميسّرة لحياتهم ومحققة لمصالحهم، هي الشريعة، أو الطريق الصحيح، تسمّت بالإسلام أو بغيره.

إنّ التجربة البشرية المفتوحة، تعارفت فيها كلّ الأمم على قيم الحياة الصحيحة، التي تباركها كلّ الشرائع والأديان؛ حيث بدأ الجميع بالسعي إلى الحرية والعدل والديمقراطية والتحديث، والواقع يقول: إنّ الغرب حقّق ذلك، وما يزال يتنافس على تحقيق المزيد، بينما نحن، أو فريق منا، ما نزال نتصور أن النبش في الماضي، ومعاداة العصر وحركته هو الطريق الوحيد للمجد المفقود.

الرجل يتصوّر أنّ الإسلام جاء ليُكره الناس، وأنّ تصوره المغلق هو الإسلام، ولا شيء غيره، يقول تحت عنوان «لو كانت لنا حكومة»: «لو كانت لنا حكومة إسلامية صحيحة الإسلام (هو يلمز هنا في كلّ الحكومات حول العالم الإسلاميّ، بأنّ إسلامها ليس صحيحاً) صادقة الإيمان، مستقلة التفكير والتنفيذ، تعلم حقّ العلم عظمة الكنز الذي بين يديها، وجلال النظام الإسلامي الذي ورثته، وتؤمن بأنّ فيه شفاء شعبها وهداية الناس جميعاً؛ لكان لنا أن نطلب إليها أن تدعم الدنيا باسم الإسلام، وأن تطالب غيرها من الدول بالبحث والنظر فيه، وأن تسوقها سوقاً إليه؛ بالدعوات المتكررة، والإقناع، والدليل، والبعثات المتتالية، وبغير ذلك من وسائل الدعوة والإبلاغ، ولاكتسبت مركزاً روحياً وسياسياً وعملياً بين غيرها من الحكومات».

إنّها جذور الحاكمية التي فصّلها سيّد قطب، ونسجت على منوالها كلّ مجموعات التطرف؛ حين اختبأت خلف جلال النص القرآني، محاولة كعادتها ليّ عنق النصوص واستنطاقها بما يريدون، وصرف الناس عن سؤال البرامج العملية للنهوض التي يتهربون منها دوماً ولم يتمكنوا من تقديمها حتى اليوم.

كيف استغل حسن البنا الشباب؟

أحمد بان
كاتب مصري

تتواصل الجهود المبذولة من قبل القيادة الإماراتية، للارتقاء بالجانبين، الثقافي والتعليمي، في البلاد، عبر تدشينها المؤسسات التعليمية والعلمية والمكتبات العامة، والتي حظيت بإضافة نوعية بعد تدشين الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، «مكتبة محمد بن راشد»، بهدف تعزيز وتعميم ثقافة القراءة ودعم النشاط الإبداعي والمعرفي والفني على الصعيد الفردي والمجتمعي.

تعتمد كلّ أمة في نهضتها على طاقة الشباب بشكل أساسي؛ فهم الكتلة الأكثر حيوية، والأقدر على دفع أثمان معارك البناء والتحديث، وعندما تعرف أمّة طريقها وترزق بالقيادة الراشدة وبثقافة التحديث المناسبة، والإرادة اللازمة للفعل الحضاري،

«أدرك حسن البنا أنّ فئة الشباب المدخل لنجاح مشروعه لذا خصّهم برسالة من رسائله»

يصبح من اليسير الولوج للمستقبل. ومن هذا المنطلق أدرك مؤسس جمعة الإخوان المسلمين حسن البنا، أنّ هذه الفئة المدخل لنجاح مشروعه؛ لذا فقد خصّها برسالة من رسائله، هي «إلى الشباب وإلى الطلبة خاصة».

تجنيد الشباب

وتخصيص شريحة الطلبة من بين الشباب لم يأتِ عبثاً في رسالة البنا؛ فالطالب لم يتحمّل بعد أعباء إدارة بيت، أو الإنفاق على أسرة وأولاد، ولديه الوقت والجهد الكافيَيْن لبذلهما في سبيل ما يؤمن به، وهو في تلك المرحلة العمرية؛ التي تتّسم بالنزوع للخيال وتوهّم القدرة على صياغة العالم على مقاس أفكاره، ويعد لذلك هدفاً مفضلاً على شاب آخر تخطّى الدراسة وحظي بمهنة أو وظيفة، متطلعاً لحياته الشخصية، باذلاً جهده في سبيل تهيئة حياة وبيت وأسرة.

أدرك حسن البنا ذلك جيداً، وهو يريد جنوداً، لا أفراداً أحراراً يشاركونه الفعل والقرار، وأطوع الجنود وأكثرهم بذلاً هم الشباب؛ متى آمنوا بفكرة، وخالطت عقولهم ومشاعرهم، وقد كان الرجل بارعاً في العزف على تلك الأوتار، وإثارة تلك المشاعر.

مهّد الرجل، في رسالته، بمقدمة بليغة غازل فيها الأجيال الصاعدة، وشحذ همّتهم وحماستهم بقوله: «إنّما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها، ووُجِد الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، والاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها، وهذه كلّها لا تكون إلا للشباب؛ {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}».

الفصل عن الواقع

يختم البنا بهذه الآية، ليكرّس في وعي الشباب؛ أنّ هذه المجتمعات أبعد ما تكون على الطريق الصحيح، وأنّهم وحدهم، كفتية الكهف، الذين يسطرون بتفردهم ملحمة الإيمان، والانفصال عن الكفر والجاهلية اللذين يحاربهما.

«أطوع الجنود وأكثرهم بذلاً هم الشباب متى آمنوا بفكرة وخالطت عقولهم ومشاعرهم»

هو يعي، منذ اللحظة الأولى، ما يريد تحقيقه؛ فصْل هؤلاء الشباب عن واقع مجتمعاتهم، وبناء مشروع بديل، يعزف على وتر المشاعر الدينية، ثم يضع هؤلاء الشباب أمام تلك المهمة المقدسة، فيقول: «قد ينشأ الشاب في أمة وادعة هادئة، قوي سلطانها، واستبحر عمرانها، فينصرف إلى نفسه أكثر مما ينصرف إلى أمته، ويلهو ويعبث وهو هادئ النفس مرتاح الضمير، وقد ينشأ في أمة مجاهدة عاملة، قد استولى عليها غيرها، واستبدّ بشؤونها خصمها؛ فهي تجاهد ما استطاعت في سبيل استرداد الحقّ المسلوب والتراث المغصوب، والحرية الضائعة، والأمجاد الرفيعة، والمثل العليا، وحينئذ؛ يكون من أوجب الواجبات على هذا الشاب، أن ينصرف إلى أمّته أكثر ممّا ينصرف إلى نفسه».

ويتابع قائلاً: «وهو إذ يفعل ذلك يفوز بالخير العاجل في ميدان النصر والخير الآجل من مثوبة الله، ولعلّ من حسن حظنا أنّنا كنا من الفريق الثاني؛ فتفتحت أعيننا على أمّة دائبة الجهاد، مستمرة الكفاح في سبيل الحق والحرية، واستعدوا، يا رجال، فما أقرب النصر للمؤمنين، وما أعظم النجاح للعاملين الدائبين».

وقود معركة دائمة

يمكن بسهولة رصد أجواء المعركة الدائمة التي يلهب بها ضمير الشباب، ويدغدغ بها مشاعرهم، بهذه الحدّية المسيطرة على تصوّره، في جعل الدنيا دار الصراع الدائم بين الحقّ، الذي يتصور أنه من نصيب جماعته أو حزبه، والباطل الذي يقتسمه باقي الناس.

يفترض حسن البنا أنّ الدنيا كانت يجب أن تدين لفريق من المسلمين، يكون لهم السلطان على هذه الأرض، وقتها كان من الممكن أن يكون لهذا الشاب حياة خاصة وأهداف خاصة، وطموح خاص، لكنّ المعركة لا تدع لأحدٍ من خيار، سوى حمل السلاح والجهاد بمفهومه.

يضع البنا مجموعة من الافتراضات، ويجعلها مسلَّمات لا تقبل الجدل، لتكون المعمار الذي ستبنى عليه تصورات هؤلاء الشباب، فتحوّلهم إلى وقود لتلك

«يكرّس البنا في وعي الشباب بُعد المجتمعات عن الإسلام وأنّ الإخوان وحدهم أصحاب الإيمان الصحيح»

التصوّرات، فيخاطبهم بحدّية وحسم، تحت عنوان: «دعوة الإخوان المسلمين»، أو «دعوة الإسلام في القرن الهجري الرابع عشر»، وبتأمل هذا العنوان جيداً؛ يمكن إدراك أنّ الرجل يقول: إنّ المسلمين جميعاً عليهم أن يكونوا أعضاء في هذا الحزب، ليبقى وصفهم بالإسلام، لأنهم التجسيد الحيّ لهذا الدين.

يقول: «يا شباب، لقد آمنا، إيماناً لا جدال فيه ولا شكّ معه، واعتقدنا عقيدة أثبت من الرواسي، وأعمق من خفايا الضمائر، بأنّه ليس هناك إلا فكرة واحدة؛ هي التي تنقذ الدنيا المعذبة، وترشد الإنسانية الحائرة، وتهدي الناس سواء السبيل، وهي لذلك تستحق أن يضحي في سبيل إعلانها والتبشير بها، وحمل الناس عليها، بالأرواح والأموال، وكلّ رخيص وغالٍ، هذه الفكرة هي الإسلام الحنيف الذي لا عوج فيه، ولا شرّ معه، ولا ضلال لمن اتبعه»، وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان الإخوان هم الممثل الحصري للإسلام، كما ذكر، فإنّ نصرة هذا الحزب والعمل معه هي أصل الجهاد لنشر الدين والدفاع عنه.

مبعوثو العناية الإلهية!

هو ينتدبهم لهذا الدور؛ فيجعل الارتباط بالجماعة، والعمل تحت لوائها، هو صحيح الإيمان بالدين والعمل من أجله، ثم يحفزهم لهذا العمل، فيقول: «فأول ما يدعوكم إليه أن تؤمنوا بأنفسكم، وأن تعلموا منزلتكم، وأن تعتقدوا أنكم سادة الدنيا»!

يتوهّم البنا أنّه، هو وجماعته، مبعوثو العناية الإلهية لإنقاذ العالم، متعمداً التبشير بذلك تحت لوائه باسم الدين، فيقول: «إنّ العالم كلّه حائر يضطرب، وكلّ ما فيه من النظم قد عجزت عن علاجه، ولا دواء له إلا الإسلام، فتقدموا -باسم الله- لإنقاذه، فالجميع في انتظار المنقذ، ولن يكون المنقذ إلا رسالة الإسلام التي تحملون مشعلها وتبشرون بها».

«إنّها الفاشية باسم الإسلام تلك التي يدعو إليها البنا متمثلاً هتلر وموسوليني دون أن يخفي إعجابه بهما»

الديـن حالـة امتـلاء روحـي، تصـوغ إنسـاناً صالحـاً متعاونـاً مـع غـيره، راشـداً في أفعالـه، والدولـة صيغـة جامعـة تحفـظ حقـوق النـاس، وتمـضي بمؤسسـاتها نحـو التحديـث والـرقي، محكومـة بالقانـون، لكـن يتوهـم البنـا أنّ هنـاك خطـة أخـرى؛ هـي خطـة الحـرب الدائمـة، الـتي تفـرض برنامجـاً تعبويـاً، يبـدأ بصياغـة أمّـة الأيديولوجيـا الواحـدة المغلقـة، الـتي لـن يعبّـد طريقهـا سـوى مـا أسـماه منهـاج الإخـوان المسـلمين.

يصـوغ البنـا هـذا المنهـاج وفـق خطـة تبـدأ، عـلى حـدّ قولـه: «بالرجـل المسـلم، ثم بعـد ذلـك البيـت المسـلم، ونريـد بعـد ذلـك الشـعب المسـلم، فالحكومـة المسـلمة؛ الـتي تقـود هـذا الشـعب إلى المسـجد، وتحمـل بـه النـاس عـلى هـدى الإسـلام مـن بعـد، كمـا حملتهـم عـلى ذلـك بأصحـاب رسـول الله، صـلّى الله عليـه وسـلّم، أبي بكـر وعمـر، رضي الله عنهمـا، مـن قبـل، ونحـن لهـذا لا نعـترف بـأيّ نظـام حكومـيّ لا يرتكـز عـلى أسـاس الإسـلام، ولا يسـتمدّ منـه، ولا نعـترف بهـذه الأحـزاب السياسـية، ولا بهـذه الأشـكال التقليديـة، الـتي أرغمنـا أهـل الكفـر وأعـداء الإسـلام عـلى الحكـم بهـا، والعمـل عليهـا، وسـنعمل عـلى إحيـاء نظـام الحكم الإسـلامي بـكلّ مظاهـره، وتكويـن الحكومـة الإسـلامية عـلى أسـاس هـذا النظـام».

يفصـح البنـا، في تلـك الفقـرة، عـن أهدافـه الحقيقيـة، وتتبـدّى أفـكاره أكـثر وضوحـاً حـين يتحـدث عـن ضـمّ كلّ جـزء ينتسـب للإسـلام تحـت السـلطة الـتي يسـعى إليهـا، مؤكّـداً أنّـه: «إن كان الرايـخ الألمـاني يفـرض نفسـه حامياً لـكلّ مـن يجـري في عروقه دم الألمـان، فـإنّ العقيـدة الإسـلامية توجـب عـلى كلّ مسـلم قـوي، أن يعـدّ نفسـه حامياً لـكلّ مـن تشربـت نفسـه تعاليـم القـرآن، ولئن كان السـنيور موسـوليني، يـرى مـن حقّـه أن يعيـد الإمبراطوريـة الرومانيـة، فـإنّ مـن حقنـا أن نعيـد مجـد الإمبراطوريـة الإسـلامية».

إنّهـا الفاشـية باسـم الإسـلام، تلـك الـتي يدعـو إليهـا البنـا، متمثـلاً هتلـر، دون أن يخفـي إعجابـه بهمـا، في غـير موضـع، بمـا يتناقـض مـع رسـالة الإسـلام الحقيقيـة في التسـامح والعـدل، لا الحـرب الـتي يريـد البنـا وجماعتـه إشـعالها إلى الأبـد.

كيف فصل حسن البنا جماعته عن عموم المسلمين؟

طارق أبو السعد
كاتب مصري

سعى حسن البنا منذ بداية تأسيس جماعته إلى تغيير المفاهيم البديهية لدى المجتمع، عبر تكوين منظومة معرفية بديلة، لم يقدّم نسقه الفكري مرة واحدة، ولا جمع أفكاره في مرحلة واحدة، إنّما كانت منظومته الفكرية تتطور مع كلّ طور من حياته، وأثناء مسيرة حركته التنظيمية، لكنّه كان حريصاً على تدفق سيل من المفاهيم التنظيمية المغلوطة وتسريبها لأتباعه وللمجتمع، لتعمل هذه المنظومة في الغالب على خلق بيئة قابلة لخطاب الإسلاميين في المجتمع، واعتبارهم حراساً للعقيدة يحتلون مكانة فريدة في المجتمع.

عندما بدأ البنا مبكراً في تكوين منظوره، لم يقدمه كرأي لمفكر أو مصلح، بل قدمه لأتباعه على أنّه حقائق دينية لا تقبل النقاش، يقوم منظور حسن البنا بمفاهيم تصنع رؤية ذاتية، يرى الإخوان بها أنفسهم، ومفاهيم يحكمون بها على غيرهم.

جعل البنا، وقادة الإخوان من بعده، هذا المنظور إحدى أدواتهم في السيطرة على أعضاء الجماعة، وسعوا لنشره بين الناس ليستكملوا سيطرتهم على المجتمع، ويمكننا القول إنّ حسن البنا نجح إلى حدّ كبير في السيطرة على أعضاء التنظيم، ونجح جزئياً في نشره بالمجتمع، وسعت الجماعة من بعده لاستكمال تلك المهمة، فلاحقاً تمكّن الإسلامويون من فرض سلّمهم القيمي الذي يحددون به نمط السلوك المقبول من المرفوض على المجتمع في عقدَي الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين.

«سعى البنا ليغرس في نفوس أتباعه وبالتالي في المجتمع أنّهم قاموا ليدعوا المسلمين إلى الإسلام من جديد»

دون الوقوف على تفاصيل هذا المنظور، سيكون من العسير فهم لماذا يجنح الإخوان للعنف دائماً، رغم ادّعائهم أنّهم سلميون، ولماذا يتطرفون أثناء ادّعائهم أنّهم وسطيون؟ ولماذا يرفضون أيّ نقد لسياساتهم، أو أيّ اعتراض على مشروعهم السياسي؟ بل سيظلّ المتابع عاجزاً عن تفسير تماديهم في اتهام معارضيهم بأنّهم معادون للإسلام ذاته؟

يمكننا القول إنّ منظور حسن البنا، الذي ظلّ الإخوان يتوارثونه ويعلمونه لأتباعهم في كلّ الأوقات، جعل الفرد الإخواني يرى ذاته وجماعته أنّهم ممثلون للإسلام، أو هم الإسلام ذاته، ويحكمون على أفراد مجتمعاتهم بأنّهم إما مجتمع جاهلي، أو في أحسن الأحوال بعيدون عن الإسلام.

فكيف صنع حسن البنا منظوره كي يرى به نفسه وجماعته أو للحكم على الناس؟

بدأ حسن البنا أولاً بتحديد رؤيته لدوره ولجماعته، وفرض هذه الرؤية على أتباعه، كما خاطب الناس وفق هذه الرؤية، فكيف رأى حسن البنا نفسه وجماعته؟

رأى حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين أنّها جماعة المسلمين الحقيقيين، وإن أعلنوا غير ذلك، وبدأ مبكراً في ادّعاء الفرق بين جماعته وعموم المسلمين، بقوله في رسالة «دعوتنا»: «إيمان الأمة مخدر نائم، على حين أنّه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين»(١).

ثم يستكمل تصوره عن نفسه وجماعته بقوله في رسالة «دعوة للشباب»: «الإخوان يعلمون أنّ خير وصف لخير جماعة هو وصف أصحاب رسول الله، صلى الله عليه و سلم: «رهبان في الليل فرسان في النهار»(٢)، ليقوم بسحب هذا الوصف على جماعته، وكأنّما يستدعي الصورة المقدسة لجيل الصحابة ليصف بها أتباعه، ومن ثم تكون ساتراً دينياً يحميهم من الاتّهام أو الاعتراض عليهم، وعلى وجه الخصوص، أنّه اعتبر أنّ جماعته ودعوته هي دعوة الإسلام ذاته في القرن الرابع عشر الهجري، فنجده يقول في

«تربية الإخوان الفكرية تجعلهم يحكمون على مجتمعاتهم بالجاهلية أو في أحسن الأحوال بعيدون عن الإسلام»

الرسالة ذاتها: «ومن هنا كان من واجبي أن أشرح لكم في وضوح موجز(دعوة الإسلام في القرن الهجري الرابع عشر)».

ثم ارتفع تصوره عن جماعته، بقوله في رسالة «دعوتنا» في طور جديد: «نحن، ولا فخر، أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحملة رايته من بعده، ورافعو لواءه كما رفعوه، وحافظوا قرآنه كما حفظوه، هذه منزلتكم فلا تصغروا في أنفسكم فتقيسوا أنفسكم بغيركم، لقد دعوتم وجاهدتم، فواصلوا جهودكم واعملوا، والله معكم، فمن تبعنا الآن فقد فاز بالسبق، ومن تقاعد عنا من المخلصين اليوم فسيلحق بنا غداً، وللسابق عليه الفضل»(٣).

ثم لا يكتفي حسن البنا بهذا، بل يصل إلى غايته في رسالة «إلى أيّ شيء ندعو الناس»؛ إذ يقول: «يا قومنا: إننا نناديكم والقرآن في يميننا والسنّة في شمالنا، وعمل السلف الصالحين من أبناء هذه الأمة قدوتنا، وندعوكم إلى الإسلام وتعاليم الإسلام وأحكام الإسلام»؛ بهذه الكلمات الثقيلة والجريئة للغاية، يصل البنا إلى ما يريد أن يغرسه في نفوس أتباعه، بالتالي في المجتمع، وهو أنّهم قاموا ليدعوا المسلمين إلى الإسلام من جديد! فهل كان في قرارة نفسه يرى مسلمي عصره غير مسلمين؟ بالتالي هو يرى أنّ أتباعه هم المسلمون حقاً.

كيف روّج حسن البنا والإخوان من بعده لهذا النموذج؟

رسّخ الإخوان هذا المنظور في قلوب وعقول أتباعهم عبر ترديد أقوال حسن البنا، باعتبارها بديهيات ومأثورات، لا تقبل النقد أو النقض، كرروها حتى آمن بها أتباعهم من خلال ما يسميه الإخوان «وسائل التربية»، والتي تشمل (الأسر التربوية -الكتائب- الرحلات- المحاضرات)، كتبوا شروحات متعددة لكلّ رسائل البنا، يشرحون ويفسرون ويكررون أقوال البنا، دون الإشارة إليه ليسهل تبني المجتمع لها.

لعقود متتالية يحاول الإخوان تسريب تلك المفاهيم إلى المجتمع، فالإخوان يرون

أنفسهم ربانيين، فجعلوا المجتمع المصري يقول عنهم «الإخوان بتوع ربنا»، في حين أنّ أبرز ما يمارسه الإخوان هو السياسة، وأصل الخلاف مع الأنظمة ليس الدين بل السياسة، كما نجحوا أيضاً في جعل الفرد المصري يعتقد أنّ إيمانه أقلّ من إيمانهم، فنظر كثيرون من عوام الشعب، وبعض من وجهائه، إلى الإخوان بإجلال مبالغ فيه، استغلّ الإخوان انشغال مؤسسات الدولة في مواجهتهم أمنياً وتنظيمياً، وأنّ لا أحد قد اقترب من أفكارهم أو من أفكار وأقوال حسن البنا، فقدموه على أنّه صاحب الدعوة الرشيد، وأشاعوا على ألسنة البعض أنّ ليت الإخوان يعودون إلى أقوال حسن البنا ولمرحلة الدعوة إلى الله فقط، متجاهلين أنّ أصل الداء في أفكار حسن البنا نفسها!

خطورة هذه الأفكار على الفرد وعلى المجتمع

خطورة هذه المنظومة أنّها تجذّر الفرقة والتعصب ومن ثم الاحتراب الداخلي، هذا المنظور هو أول لبنة في بنيان الإرهاب؛ حيث يتمّ تضخيم الذات الإخوانية المنتمية للجماعة، وفي المقابل تهوين الذات المنفصلة عن الإخوان، ثم تحميل الجماعة والتنظيم حمولة فكرية مقدسة.

وحامل هذا الفكر تكون لديه القابلية للهجوم على مجتمعه إذا شعر أنّه لا يقبل فكره أو جماعته، أو أنّ أيّاً من أفراد التنظيم وقع له مكروه من قبل مؤسسات الدولة، مشكلة المجتمع مع هذا المنظور أنّه خفي يصعب اكتشافه من بين ثنايا كلام حسن البنا، ومن ثمّ أصبح قادراً على النموّ والتمدّد داخل المجتمع، فصار كلّ إسلامي يرى أنّ الآخر ليس له حظّ من الإسلام.

ومن الواجب على المجتمعات العربية تفكيك مثل هكذا منظور احتكاري، فلا تسمح لأحد أن يتحدث نيابة عن الإسلام، ولا تسمح لجهة أن تزعم امتلاكها للفهم الصحيح للإسلام، فلا أحد يملك الإسلام، ولا يجب أن يزعم أحد أنّه، هو أو جماعته، يملكون الفهم الصحيح والشامل للإسلام، ولا هم ورثة الرسول ولا إيمانهم يقظ، وإنّ غيرهم إيمانه نائم، ولا سلوكهم، أو زيّهم، أو منهجهم، هو المنهج الرباني، أو هو مراد الله.

«رسالة التعاليم» لحسن البنا: اترك عقلك واتبعني!

نادر رزق
كاتب أردني

وضع مؤسس حركة الإخوان المسلمين حسن البنا مجموعة من «الرسائل» لعلّ أشهرها وأخطرها على الإطلاق رسالة التعاليم، مستعيراً هذا النهج من شيوخ وعلماء السلف حين كانوا يضعون كتاباً موجزاً يشتمل على قليل من المسائل تكون ذات موضوع واحد..

«فهذه رسالتي إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسموّ دعوتهم، وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها، أو يموتوا في سبيلها، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجّه هذه الكلمات، وهي ليست دروساً تُحفظ، ولكنها تعليمات تُنفّذ، فإلى العمل أيّها الإخوان الصادقون».

بهذه الكلمات يبدأ البنا رسالته موجهاً إيّاها حصراً إلى الإخوان المسلمين، أما غير هؤلاء، كما يقول «فلهم دروس ومحاضرات، وكتب ومقالات، ومظاهر وإداريات، ولكل وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات، وكلاً وعد الله الحسنى».

ولا يمكن تجميل النظرة الاستعلائية الواضحة التي ينضح بها هذا التقسيم للمسلمين: الإخوان المسلمون أصحاب الحظ والحظوة الذين أنعم الله عليهم بأن كرّمهم المرشد بهذا الخطاب، أما الآخرون المساكين أصلحهم الله فلهم خطاب أقل شأناً، حاثاً إياهم على بذل المزيد من الإخلاص حتى يلحقوا بإخوانهم فـ «لكل وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات»، كأنّ البنا لم يسمع بقوله تعالى: «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» إلا أن تكون هذه التعاليم هي المقاييس المعيارية للتقوى التي ظلّ المسلمون غافلين عنها قروناً وكانت تحتاج لهذا الإيضاح الذي تفرد به عن غيره!

« لا يمكن تجميل النظرة الاستعلائية الواضحة التي ينضح بها تقسيم البنا للمسلمين إلى الإخوان وغير الإخوان»

وبعد أن يفرغ حسن البنا من تلقيناته الصارمة لـ «الأخ المسلم» التي يجب ألا يحيد عنها يختتم قائلاً: «أيها الأخ الصادق :هذه مجمل لدعوتك، وبيان موجز لفكرتك، وتستطيع أن تجمع هذه المبادئ في خمس كلمات: (الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والقرآن شرعتنا، والجهاد سبيلنا، والشهادة أمنيتنا)، وأن تجمع مظاهرها في خمس كلمات أخرى : «البساطة، والتلاوة، والصلاة، والجندية، والخلق .فخذ نفسك بشدة بهذه التعاليم، وإلا ففي صفوف القاعدين متسع للكسالى والعابثين» .

مستعيناً بـ٢٤ استشهاداً قرآنياً وبضعة أحاديث أُخرجت معظمها عن سياقاتها، يتبع البنا كعادته أسلوب الرسائل الخطابية القصيرة المركَّزة المنظمة سهلة الحفظ؛ بل واجبة الحفظ كما يقول عند ذكر أركان البيعة العشرة التي استولت على معظم رسالته هذه، وهي: الفهم والإخلاص والعمل والجهاد والتضحية والطاعة والثبات والتجرد والأخوَّة والثقة.

لم يبدأ البنا بركن «الفهم» هذا عبثاً؛ لأنَّه بداية ترك «الأخ المسلم» عقله ومتابعة شخص أقلّ ما يقال فيه، وفق هذا الفهم، إنّه «ملهم» لا يُستدرك عليه، «إنما أريد بالفهم :أن توقن بأن فكرتنا إسلامية صميمة وأن تفهم الإسلام كما نفهمه، في حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز»، وهذه أخطر مقولات البنا على الإطلاق، التي يصادر فيها أي رأي آخر وكأنه يتمثل ما ورد في الآية الكريمة «مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ».

ثم يشرع في تعداد أصول الفهم هذه، لعلّ أطرفها ما يحمل الرقم (١٨) التي أنّى لها أن تستقيم مع مفتتح كلامه السابق: «الإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح والنافع من كل شيء، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق الناس بها»!

وحين نقرأ الأصل رقم (٨) ونصه والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سبباً للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا

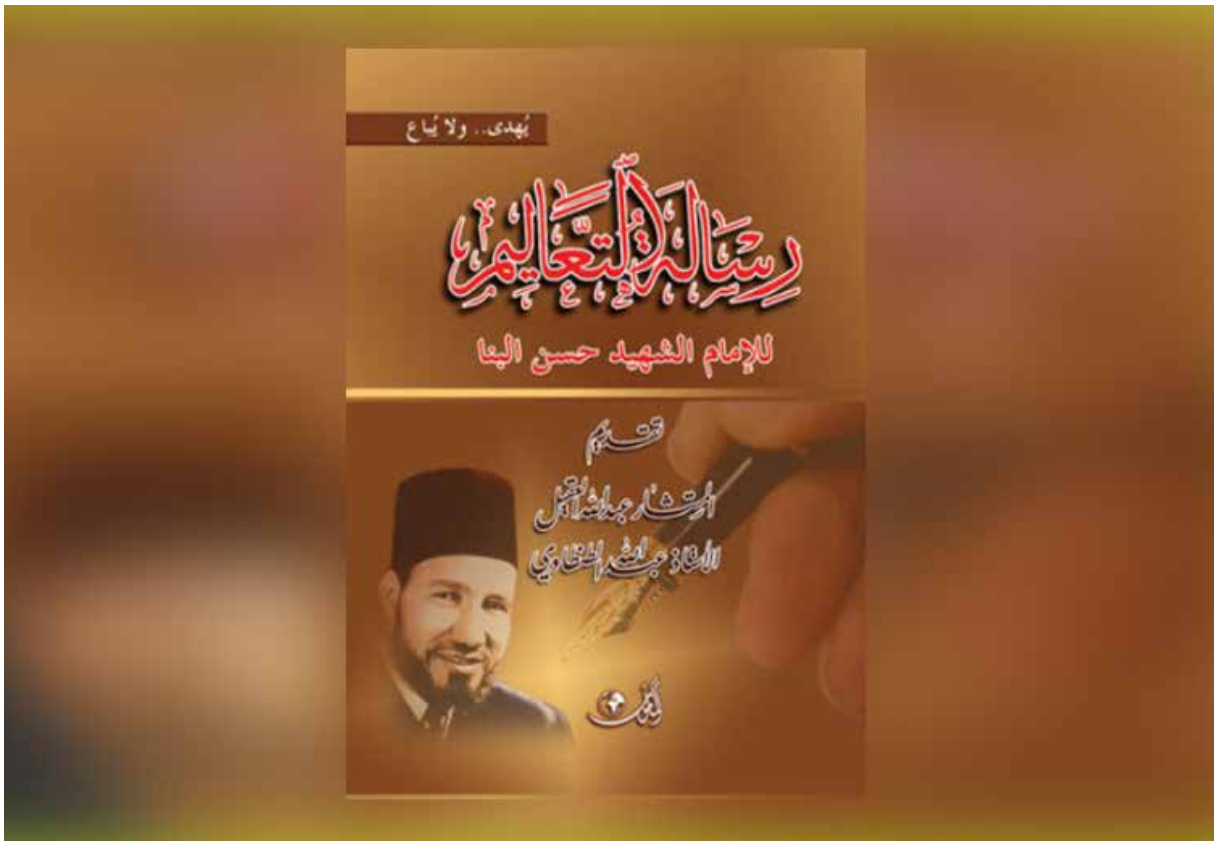

يتبع البنا كعادته أسلوب الرسائل الخطابية القصيرة سهلة الحفظ مستعيناً بـ٢٤ استشهاداً قرآنياً أُخرجت معظمها عن سياقاتها

بغضاء ولكل مجتهد أجره..» ألن نصطدم مع البنا مرة أخرى وهو القائل عن تعاليمه «وإن انصرفت عنها وقعدت عن العمل لها فلا صلة بيننا وبينك»، عندها ليس أمامنا لنجمع بين هذين القولين إلا أن نفهم أنّ ما يورده هو عين «الأصول» التي لا يجوز أن يقع خلاف حولها من مسلم صادق، هذا هو خلاصة ما يريد قوله؛ أي إنّ الرجل ليس في كلامه «فروع» تحتمل الخلاف، وهو ما يؤكده عند توضيحه للركن الثامن من أركان البيعة: «أما التجرد فأن تتخلص لفكرتك مما سواها من المبادئ والأشخاص؛ لأنها أسمى الفكر وأجمعها وأعلاها: (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً)».

وينتقل البنا إلى فصل الخطاب الذي يريد إيصاله من هذه التعاليم في الركن العاشر والأخير من أركان البيعة ألا وهو «الثقة»، ولكن الثقة بمن؟ «وأريد بالثقة :اطمئنان الجندي إلى القائد في كفاءته وإخلاصه اطمئناناً عميقاً ينتج الحب والتقدير والاحترام والطاعة؛ (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء:٦٥)».

ولا يكتفي البنا بأن يدعّم مقولته في الثقة العمياء بقيادة الإخوان (المتمثلة بشخصه) بالآية الكريمة الموجهة للرسول

« يتوعد البنا من يخرج عن هذه التعاليم بما يوحي أنها خطيئة ترقى إلى الخروج من الإسلام ذاته»

صلى الله عليه وسلم، بل يتابع مشدّداً عليها بقوله: «وللقيادة في دعوة الإخوان حق الوالد بالرابطة القلبية، والأستاذ بالإفادة العلمية، والشيخ بالتربية الروحية، والقائد بحكم السياسة العامة للدعوة، ودعوتنا تجمع هذه المعاني جميعاً، والثقة بالقيادة هي كل شيء في نجاح الدعوات».

إنّ من ينتهي به الأمر مؤمناً بهذه التعاليم قولاً وفعلاً، كما يطلب صاحبها، سيصل إلى نتيجة بيّنة لا تحتمل أي تأويل؛ بأنّ هذا هو الإسلام وفهمه الصحيح ولا مكان للخلاف حوله، وهذا سر الفلاح في الدنيا والآخرة، وفي ذلك يقول البنا: «وأعتقد أنك إن عملت بها وجعلتها أمل حياتك وغاية غايتك، كان جزاؤك العزة في الدنيا والخير والرضوان في الآخرة، وأنت منا ونحن منك».

يختتم حسن البنا «التعاليم» بوعيد عجيب لكل من خرج عن هذه الجادّة، بما يوحي أنّ هذه «الخطيئة» ترقى إلى الخروج من الإسلام ذاته، وبما يوجب المحاسبة الإلهية على هذا الذنب الذي لا يغتفر «وإن انصرفت عنها وقعدت عن العمل لها فلا صلة بيننا وبينك، وإن تصدرت فينا المجالس وحملت أفخم الألقاب وظهرت بيننا بأكبر المظاهر، وسيحاسبك الله على قعودك أشد الحساب، فاختر لنفسك ونسأل الله لنا ولك الهداية والتوفيق».

وبعد أن ينتهي المرشد الأول من شرح أركان البيعة، ينتقل إلى «واجبات الأخ العامل»، وهي في معظمها توجيهات مسلكية تتسرب إلى أدق التفاصيل في حياة العضو الإخواني من عمل ومأكل وملبس ومسكن والحض على مطالعة رسائل الإخوان وجرائدهم، ويبلغ الأمر حد «مقاطعة المحاكم الأهلية وكل قضاء غير إسلامي، والأندية والصحف والجماعات والمدارس والهيئات التي تناهض فكرتك الإسلامية مقاطعة تامة».

«فصل الخطاب الذي يريد البنا إيصاله في الركن العاشر والأخير من أركان البيعة هو الثقة بالمرشد»

«رغم أن رسالة التعاليم لا تتجاوز 10 صفحات إلا أنها تمثّل خطاباً مشبعاً بالمتناقضات»

وتصل هذه الواجبات التي يبلغ عددها ٣٨ إلى منتهى التحكم بالحياة الشخصية وحرية الاختيار والحركة في الثلاثة الأخيرة منها: «أن تعرف أعضاء كتيبتك فرداً فرداً.. وأن تحضر اجتماعاتهم فلا تتخلف عنها إلا بعذر قاهر، وتؤثرهم بمعاملتك دائماً»، و»أن تتخلى عن صلتك بأية هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها في مصلحة فكرتك وخاصة إذا أُمرت بذلك»، وأخيراً «أن تحيط القيادة علماً بكل ظروفك ولا تقدم على عمل يؤثر فيها جوهرياً إلا بإذن،.. وأن تعتبر نفسك دائماً جندياً في الثكنة تنتظر الأوامر».

ويبلغ البنا ذروة التزكية للمنهج الذي اختطه حين يختار الآية الكريمة خاتمة هذه التعاليم في إيحاء لا يخفى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ».

رغم أنّ هذه الرسالة لا تتجاوز من الصفحات عشراً، إلا أنّها تمثل خطاباً مشبعاً بالمتناقضات، فحين نستمع للبنا بعد كل ما ذكره يقول «ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجرَّ ذلك إلى المراء المذموم والتعصب»، لن يكون أمام من تتملّكه الحيرة من إجابة إلا أن يدرك أنّ ملخّص رسالة التعاليم هذه بكل بساطة: اترك عقلك واتبعني.

المرأة كما تصوّرها حسن البنا: مكانها المنزل ووظيفتها الإنجاب

حهاد حسين
كاتب سوداني

أراد حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، من خلال رسائل كان يبثّها، وضع اللّبنات الأولى في بنيان الجماعة التي تشكل الآن كبرى الحركات الإسلامية وحركات الإسلام السياسي، من خلال تصوراته عن الراهن الثقافي والاجتماعي والعقدي وسبل إصلاحه بوصفه فاسداً من جهة انفصاله عن الشرع، وإن لم يكن كذلك في باب العقل ومنطق الأرض.

ومن ضمن هذه التصورات التي وضعها، ويجب إعادة النظر فيها، تصوراته عن المرأة في الإسلام والتي بثّها من خلال رسالة صغيرة مقتضبة وعجولة وغير متأنية في طرحها للأفكار، كما يثبت ذلك كتاب «المرأة المسلمة» الصادر عن دار الجيل في بيروت. ففي هذا الكتاب يعتبر البنا أنّ ما يقوله هو في الحقيقة تحصيل حاصل؛ أي تذكر لنسيان طبع المجتمعات المسلمة عموماً والمجتمع المصري على وجه الخصوص.

ويظهر هذا من خلال إهمال البنا لكتابات ما يسمى بعصر النهضة في هذا الشأن الذي يخص المرأة؛ فيبدو واضحاً للقارئ أنّ حسن البنا لا يؤسس لأي نوع من الحِجاج في هذا الشأن.

البنا، وحسب، يعتمد على الوجدان العام المعادي للمنتج الغربي وتمظهراته في الثقافة الإسلامية بوصفها طهرانية اجتاحتها دناسة الفكر الغربي، وهذا الفكر في مسألة المرأة ليس له عند البنا محدد موضوعي، فكل ما ينافي تصوراته الإسلامية لشكل المجتمع يدخل في خانة الدناسة الغربية، وهنا يكمن الإشكال؛ إذ ينطلق من بساطة تخلّ بغنى وتعدّد الرؤى داخل الإسلام

«المرأة، في تصوّر البنا، كائن بشري لا دور له في الحياة سوى الإنجاب والتربية والرعاية»

وتعـدّد الـرؤى الغربيـة نفسـها ومسـيرتها الطويلـة خصوصـاً في بنـاء المجتمعـات والتعليـم والتربيـة.

يضـع البنـا في البدايـة تصـوراً عامـاً نجـده شـائعاً في معظـم المقولات الإسـلامية، وهـو كـون الإسـلام جعـل للمـرأة حقوقـاً كمـا الرجـل، ولكـن هـذه المقولـة المعمّمـة والمفتوحـة يتضـح أنّهـا مجـرد شـعار بـرّاق يخالفـه بقيـة المضمـون النظـري التفصيـلي لهـا، وهـي أيضـاً تنطـوي عـلى ثبـات لا نقـاش فيـه لحقـوق الرجـل تقـاس حقـوق المـرأة، الأمـر الـذي يظهـر في الصياغـة «كمـا الرجـل». واعتـبر حسـن البنـا هـذه المقولـة ليسـت بحاجـة إلى مزيـد تفصيـل؛ إذ يحيـل القـارئ إلى مـا يتوهّـم هـو أنـه معلـوم وليـس بحاجة إلى إيضـاح كمـا يـرد في كتابـه.

من اختلاف التنوع إلى اختلاف الحقوق

الاختـلاف هنـا ليـس اختلافـاً طبيعيـاً داخـل الوحـدة، وهـي الكائـن البـشري بوصفـه ذكـراً وأنـثى، إنمـا اختـلاف لـه اعتبـارات حقوقيـة وتراتبيـة؛ إذ يـبرر حسـن البنـا التصـور القائـل بنقصـان مكانـة المـرأة وحقوقهـا بكـون هـذا النقصـان هـو بالأصـل فائـدة للمـرأة نفسـها، مـا يجعـل لهـا طريقـاً مختلفـاً عـن طريـق الرجـل في نظـم الحيـاة؛

فطريق المرأة عند حسن البنا ومهمتها في الحياة التي خلقها لأجلها الله هي الرعاية والتربية وحسب، كما يقول في كتابه، الأمر الذي يعفيها من القيام ببقية الأعباء.

المرأة، في تصور حسن البنا، كائن بشري لا دور له في الحياة سوى الإنجاب والتربية والرعاية؛ فهي مستقيلة من الفعل في الحياة العامة، فوفقاً لاختلافها عن الرجل لا يجب أن تتعلم شيئاً غير الدين، وما تحتاجه من الحساب والكتابة، أما بقية العلوم كالتبحّر في اللغات والفن ودراسة الحقوق والقوانين فعبث لاطائل منه، كما يقول البنا في كتابه، ليرد على أصحاب الرؤى المخالفة بطريقته التبسيطية المخلة المعهودة قائلاً: ستعلم -أي المرأة - أنّها للمنزل أولاً وأخيراً.

مجتمع فردي وحياة عامة بلا نساء

يكرّر البنا مراراً في رسالته حول المرأة أن المجتمع الإسلامي مجتمع فردي يعيش فيه الرجل منفصلاً عن المرأة، والمرأة منفصلة عن الرجل في سياق منع الاختلاط وأسبابه في الحياة العامة كالمدارس والجامعات والمؤسسات، وهذا الأمر يعني ضمنياً، بحسب قاعدته، أنّ الحياة العامة وفقاً للشرع الذي يتخيله حياة عامة بلا نساء؛ فالأعمال العامة، كما يقول في الكتاب المذكور، أمر محرم في الإسلام، ما يجعل الفعل الحضاري فعلاً يقوم على ساق واحدة، وهو ما لن يحدث إذا انزوت المرأة، وغدت كائناً أبكم لا وجود أنطلوجياً مستقلاً لها في الحياة باعتبارها أحد الجزأين اللذين يكونان الوجود البشري ويعمرانه.

البنا يصنع مخيالاً يميت دور المرأة في سياقنا الثقافي الاسلامي والعربي بتحجيم دورها وحرمانها من العمل والعلم، فما دوّنه في رسالته حول المرأة ردة ونكوص عن مسيرة تحرير المرأة من الحتميات الثقافية الخاصة والظلم الاجتماعي الذي يقتلها انطلوجياً.